# ملامح أمل!

المتشائمون من الاحوال العربية الراهنة كثر. واسباب تشاؤمهم اكثر: من حروب بين العرب، وبين العرب والعجم، وبين العرب واسرائيل إلى أحوال معيشية صعبة في البلدان العربية الأقوى كثافة بالسكان، الى مشاريع تصنيعية تبدأ الانتاج بينما الاسواق العالمية مصابة بالتخمة، الى اسعار النفط التي يتوقع تدهورها، الى أموال عربية طائلة وظفت في غير مكانها، الى امكانيات عربية اهدرت قبل زمانها، الى طاقات عربية همّشها المنفى وخنقها القمع وأقعدتها الغربة واستلبها الاغتراب. . . يا لكثرة اسباب التشاؤم! والى حد بعيد، فالتشاؤم قد أصبح الواقعية بعينها.

غير ان هناك على الاقل سببا كبيراً للتفاؤل بمستقبل أفضل، سببا قديما في هويته، جديدا في حجمه: العلم. تخصّص البلدان العربية اليوم للتربية النسبة نفسها (٦ بالمئة) التي تخصصها الدول المصنعة في هذا المجال. ويتضاعف الانفاق على التعليم الجامعي بصورة مطّردة، بحيث كان يشكل ٤,٧ بالمئة من الانفاق الحكومي على التربية في مطلع السبعينات، بينما تتجاوز حصته ١٤ بالمئة اليوم. وقد تضاعف عدد الجامعات العربية اربع مرات في عشرين سنة من ١٢ جامعة سنة ١٩٦٠ الى ٥٠ اليوم. وربما شكلّ عدد الشباب العرب الذين يتخرجون من الجامعة أعلى نسبة ازدياد في العالم: فبينما تخرج ما مجموعه ٤٠٠ الف عربي من الجامعات في فترة ١٩٧٠ ـ ١٩٧٥، تضم الجامعات العربية اليوم مايزيد على مليون ونصف من الطلاب.

وقد حقق عدد من البلدان العربية تطورات مذهلة في مجال محو الامية. فقد ارتفعت نسبة الذين يحسنون القراءة والكتابة، خلال ربع القرن المنصرم (١٩٦٠ ـ ١٩٨٥) من ١٦ الى ٦٤ بالمئة في تونس، من ٣٢ الى ٧٠ بالمئة في الاردن، من ٣٠ الى ٦٠ بالمئة في تونس، من ٣ الى ٢٢ بالمئة في اليمن الشمالي، من ١٤ الى ٣٠ بالمئة في المغرب. وقد ازداد عدد المدارس الابتدائية بصورة مطردة: ٧٠ بالمئة من اطفال اليمن الجنوبي هم الآن في المدرسة، ٧٥ بالمئة من اطفال مصر، ٩٦ بالمئة من اطفال سوريا. ولو ان الارقام ما زالت افضل بكثير في دول المشرق منها في دول شمال افريقيا.

هذه التطورات الجبارة، وتوقع النتائج الكبرى لحملات محو الامية، وافتتاح المدارس والجامعات، تنبىء فعلا بمستقبل عربي أفضل، بقدر ما يؤدي التعليم الى القضاء على الجهل، والى توسيع رقعة الافكار العصرية والتفتح على الحداثة. ولهذه الحملة نتائج سياسية واقتصادية مثيرة سوف تضطر المجتمعات العربية (والأنظمة) الى مواجهتها بصعوبة في الفترة المقبلة.

□

من هنا التفاؤل، ولكنه تفاؤل مشوب بالحذر. فالتعليم ليس بالضرورة انخراطا في الحداثة ورفعا ناجحا لتحديات العصر. اذ انه يحمل في طيّاته انشقاقات مجتمعية، وغربة للمتعلم عن وسطه التقليدي، ومطالبا متزايدة بالمشاركة في صنع القرار خارج الاطر القائمة.

والحذر مصدره ايضا ضعف النوعية. فالجامعة العربية ما زالت الى حد كبير مصنعا للشهادات ليس إلاّ. فكم من استاذ جامعي يعيد درسه اربعين سنة على التوالي دون تغيير حرف. وكم من شهادة جامعية

عليا تشرى وتباع بالاصفر الرنان. وكم من كلية تتحكم بها سلطة سياسية جائرة.

والهزال سمة مراكز البحث بالتحديد. لقد أحصت اليونسكو اكثر من ٣٠٠ مركز للدراسات في العالم العربي ولكن بعضها مجرد شركة طباعة ونشر، وبعضها الآخر اسم لغير مسمّى، وبعضها القليل القليل يقوم بما يشير اليه اسمه. وتساهم المنطقة العربية كلها بقيمة متواضعة جدا في البحث العلمي لا تتجاوز ٣٠٠ مليون دولار (وهو اقل من ثمن سرب من الطائرات الحربية الحديثة).

ويؤدي قمع الفكر والحريات الى نتائج وخيمة من أخطرها القتل والتعذيب والصمت الاجباري والمنفى طبعا. وتشهد المنطقة العربية احدى أسوأ موجات هجرة الأدمغة في العالم اذ انه من المؤكد ان حوالي نصف الاطباء العرب، وربع مهندسيهم، و١/٧ خريجيهم في العلوم البحتة قد استقروا بصورة نهائية في الدول المصنّعة.

ولهذه الهجرة اثار سيئة للغاية على الاستقلال الحضاري والاقتصادي. فيما تستورد الدول العربية المنتجة للنفط التكنولوجيا النفطية برمتها، حتى البدائية منها، ترى الهند وهي منتج متواضع وبلد نام، وقد امنت شبه استقلال تام في مجال التكنولوجيا النفطية من بحث وتنقيب واستغلال ونقل وتسويق. وقد كانت المساهمة المحلية العربية ضئيلة واحيانا معدومة بالمرة في بناء السدود والمطارات وسكك الحديد، ناهيك عن المجمعات الصناعية التي تم انشاؤها خلال العقد المنصرم.

□

هكذا ترتبط المسألة التربوية، باشكالية الاستقلال والتبعية. ان الحاجة ملحة اليوم، اكثر من اي وقت مضى، الى فكر عربي يعيد وضع الاستقلال في صلب هواجسه. فالتعليم، اذ يرفع من قدرات الفرد العربي، له هدف آخر وربما اسمى: وضع أسس استقلال المجتمع العربي في المجال التكنولوجي والثقافي.

هنا يتحول الأمل (الكمّي) الى ترقب وربما الى خيبة. فلا يعتقدنّ مسؤول عربي واحد ان موجة التعليم سوف تنحسر الى جدران المدرسة والجامعة. ان فيها بذور هدم مداميك المجتمع التقليدي، ان فيها مؤشرات تبدلات عميقة وعلى الانظمة السياسية ان تهيء نفسها، لاستيعابها والتأقلم معها، ان هي شاءت تجنّب مواجهات عنيفة بل وحروب اهلية. فالتعليم في لبنان لم يؤد، على مستواه الراقي قبل ١٩٧٥، الى وأد الحرب بل كان، في شموليته وخاصة في تعارضه مع البنى الطائفية القديمة، سببا خطيرا من اسباب تأجيج الحرب «وأدلجتها». وقد يصبح الوضع اكثر خطورة في بلدان اخرى تتميز بنسب مرتفعة من السكان الشباب، بفضل ارتفاع عدد المواليد وتحسن الاوضاع الصحية.

مفتاح الحل السلمي لهذه المواجهة القادمة هو في المشاركة السياسية. ان ادماج عدد متزايد من ممثلي الفئات الشابة المتنورة في صنع القرار السياسي والاقتصادي والديبلوماسي والاداري، هو الحل الحقيقي، التدريجي، لهذه المعضلة. وتمنع السلطات القائمة عن المبادرة لهذا الاشراك يعني اختيارها الضمني للعنف والقسوة. وهو يعني بالنهاية اختيارها للتبعية للغرب كمهندس، ومخطط، ومقرّر، ومطوّر. فالاستقلال اليوم رهن بالديمقراطية، وصنو لها.

هل الانظمة العربية القائمة واعية لهذا التحدي العظيم؟ هل هي مستعدّة فعلا لرفعه؟◇

**الحاجة الملحّة اليوم**
**ان ترتبط المسألة التربوية**
**بأشكالية استقلال المجتمع العربي**
**في المجال التكنولوجي والثقافي**


**بقلم: الدكتور غسان سلامة**

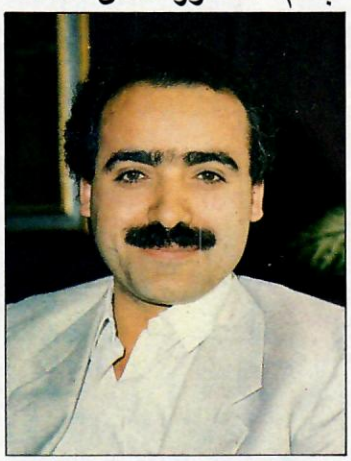

**لبناني. دكتور في الآداب وفي العلوم السياسية. له عدّة مؤلفات. استاذ في قسم العلوم السياسية في الجامعة الاميركية في بيروت.**